طيور بعد الطوفان

« أسئلة كثيرة يطرحها القلب في زمن الاجوبة العفنة »

احمد فرحات

اذا كان التساؤل الذي يطرحه علينا أي عمل ابداعي هو ما الجديد في التجربة المستأنفة ... وببدل آخر ما الاضافات التي يستطيع الشاعر أن يضيفها بتميز على تجربته السابقة ، واستطرادا على تجربة الحداثة الشعرية العربية التي لم تتضح خارطتها النهائية بعد ... فاننا نستطيع أن نجيب بأن الشاعر ياسر بدر الدين في عمله الجديد «طيور بعد الطوفان» (*) أكد وبتواضع ملحوظ قفزة نوعية في خط مساره الشعري ، ان في الرؤى « الابستيمولوجية » غير المستهلكة ، أو في الادوات التي تنسحب على متنها هذه الرؤى . ولا أذهب في القصد هنا ان الشاعر اجترح معجزات جديدة أو قدم دليلا قاطعا على تجربة هي وحدها تضيف ألوانا على ثبوت حضور الحداثة الشعرية . وانما ما أرمي اليه ان الشاعر أجاب على التساؤل المبدئي المطروح الذي تفرضه أية تجربة جديدة تهلّ علينا .. بمعنى التجاوز المنبىء عن تطور ما حققه ولا بد أن يصب في القنوات العامة لمرحلة التجريب التي يمر بها شعرنا العربي الحديث .

في المجموعة سمات عامة تنسحب بأفقية هادئة على طول القصائد . هذه السمات معلمها باختصار سيطرة الهاجس الوطني المشبع بحساسية بالغة الخصب والاضطراب تجاه ما يجري في الوطن الصغير من ويلات وفعل خراب مستمر . الا ان هذا الهاجس غير محكوم بالمحرضات الصارخة ، ولا بمهيئات التهويش المجاني العابر ... انما يتخرج كما أسلفت بأفقية هادئة لترجمة الداخل المفتت الحزين والمساق بجحيم ألف معنى ومعنى :

« في زمن الموت
وجعي يمتد كنخلة
يصبح للحظة لون القهر وطعم بريق الصحراء
في زمن الموت
أغفو فوق وسائد عينيك الموجعتين
وأطفو مثل نبات الماء
في زمن الموت
يصبح للحظة لون العينين
وأصبح عصفورا مختنقا بين النهدين » .

انها الحرب .. تلفّ الشاعر بغموض تقاويمها ، بآلية اضطهادها ، وسجن تكيفها العصيب .. حيث تتساجل أجهزة الاحتشاد الهبائي المتتاخم ولا يملك الشاعر ازاءه الا أن يطلق شهادات راشقة بعمق الادانة :

« يا خيّالة هذا العصر المهزوم
من منكم أكلته الحرب
وحارب في اللاحرب
دمكم في الكأس
يا فرسان الردة لن تنتصروا
يا فرسان النار الوحشية لن تنتصروا
أصوات تجرح صمت القبر وتنتشر
لن تنتصروا .. لن تنتصروا »

أمام الشاعر صورة بيروت المكتسحة بالتقويض.. مدينة يلاحقها فيض الخراب القادم من كل مكان .. مسجلا مداه المؤكد على نحو خطير يشهد باهتزاز هذا العصر وانحرافاته .

أمامه صورة مدينة مشبعة بالانفلاق والجنون وولّه التجريد الكابوسي لشذّاذ المعادلات التحريضية الذين ما انفكوا يسعون لاجتراح اهانات جديدة .

أمامه صورة بيروت تتكرر في وهدات شوارعها الخرساء زوارق الجثث المتراخية :

أرأيت بيروت القتيلة
في دخان الموج غلت شعرها اللهبي
أي كآبة تنساب في غضب الشوارع
حين يحتضن الرصيف برودة الجثث القتيلة »

ولعل العنصر الغنائي الذي يمتاز به شعر ياسر بدر الدين عموما يطفح في هذه المجموعة على نحو مستبلغ أكثر بكثير مما ألفناه منه في السابق . ففوستالجيا التداعي التي بدأت وكأنها لا نهاية لها ، تتواتر من أحشاء ذاكرته الملتهبة بخطوط وألوان عميقة الاندغام فينا .. فتراه يصبّ صوره من خلال المواجهة المذعورة بانفعال لا يأبه لعناد المماثلة ويتسع يتسع ليحتضن كل حواسنا ومدركاتنا :

« يا قاتلتي
يقتلني البعد ولكني
أخشى رؤية عينيك الغائمتين
وشعرك تشنق فيه الريح الاحجار
أخشى رؤية وجهك في الفجر
تشوهه النار
. . . . . .

(*) منشورات دار الاداب ـ بيروت .

وتجمعت الالوان المطفأة
على شكل ما أهواه
على جرح ما أهواه »

على ان الغنائية هـذه تتهيكل متلبسة التلطيفات الرومانسية التي يعيدنا الشاعر فيها الى أجواء فقدنا انبعاثها اللهبي التركيزي الجميـل ... بحيث غطت « فنتازيا » التراكمات اللفظية التركيبية معظم نتـاج جيلنا من الشعراء الشبـان ، ففقدوا براءة التوجه مستسلمين لتمرينات عبثية على نحو مشوه لتجـارب بعض رواد الحداثة الذين تميزوا بالاصالة الشاعرية في عملية كسرهم للنمطية التي كانت سائدة .

والتلطيفات الرومانسية ، عـلى رغم مبالغاتها الانديناحية عند الشاعر بدر الدين ، تحمل حقائق نفسية تحاول أن تتجسد عبر مقاطع شعرية مكثفة الشفافيـة والضوء :

فلتافا
هل تعلم ماذا تعني في الغربة عيناها
. . . . . .
يا جرحا أخضر
في قلب « براغ » وقلبي
يتناثر من عينيك الورد
زوارق عاشقة
وعلى رقصاتك سابحة
مهج العشاق
يساورها ثغر الريح
ويلفحها برد الذكرى »

وهناك خصيصة تمتاز بها هذه المجموعة النازفـة للشاعر ، هي ان الصور الشعرية فيها لا تتوقف عنـد وظيفة واحدة .. بل ترتفع شبكـاتها حرة الآماد تحمل في طياتهـا وعلى نحـو سري نفسا ملحميا لا مثيـل لفورياته الخافتة ، وكفاحاتـه الانفجارية التي يكوّنها بذاته خلل علاقات امتدادية صاهرة مـع دمار العناصر الداخلية للشاعر .. حيث يخرج بنشيد انفعالي يبتعد كل البعد عن اللعيان الصراخي المبتذل .

ان الشاعر في هذا يقدم قصيدة الدلالة . هـذه القصيدة التي نرى انفعالاتنا الجماعية مرسومة فيها . حيث ان أي قارىء عميق يستطيع أن يلاحظ حضورا للتاريخ يتناسخ على شكل التناثر والانهيار والقتامة .. مما هو معبر أشد التعبير عن حالة هذا الوطن الصغير المعار للانطفاء .

هذا ولا يغيب عـن بال الشاعر صورة المرأة التي هي بمثابة مصل لدوام تأمله .. المرأة الحبيبـة والمرأة الرمز المتجسد في كل الابعاد التي يغيب فيها . هـذه الناحية وان تبـدو مستهلكة بعض الشيء في تجارب شعرائنا ، تبقى مـع الشاعر بدر الدين مبعث فرادة واصالة مرتبطـة بالاعصاب والدم والشوق الجواني المنهوب : .. انها حركة حلم يتواصل مع كـل المرئيات المنسحبة أمامه .. الوطن .. المـوت .. الذكريات .. الدم .. الخ ... فهو لا يجد امتلاءه الا عبرها .. ولا يحتفي بالوهج وبروز التوابع الا معها :

« فيا زورق العمر والذكريات
خذني بعيدا ، بعيدا اليها
بين جرحي وجرحي
انها أقرب مني لقلبي
دماء دماء دماء
مضى زورق العمر ، مال
وما زال قلبي
وما زال
قليلا من الموت حتى أغني
قليلا من الحب حتى أموت »

هذا ويتخذ بناء القصيدة عنـد ياسر بدر الدين شكلا انسيابيا غير مهندس التركيز .. محكوم على الدوام بشروط طهارة التذكر والاستسلام للحالـة .. وبرأيي هنا تكمن لعبة الشعر الكبرى .. بحيث يستحيل تتالي الالفاظ مجرد أداة ثانوية لا يهمنـا فيها الا ما تحمله من افصاح تسعيري للتوهج الداخلي .

على ان هذا لا يعني الرضوخ الاستسلامي الـذي يتيح للركاكة أن تظهر .. وانما الذي نرمي اليـه هو الاحجام عن اللجوء الى النبيش الارادي لتحقيق اللفظة المستعارة من مسرح لغة الحداثة الشائعة . وهو ما كان الشاعر ياسر بدر الدين في نجوة منه . اذ الملاحظ انه يترك عفويته المراقبة بالوعي على سجيتها تقول ما تريد .. وعلى نحو مريح غير مربك لا يجهد في تركيب العبـارة التي تعلن حضورها المفتعل في طواعية آسرة .

وعلى هذا فجمل السياق تجيء عادية سهلة أقرب الى لغة الحياة اليومية ، همها تأدية المعنى وايصـال الموقف .. على غير حساب الشروط الفنية طبعا .

تجربة ياسر بدر الدين في « طيور بعد الطوفان » تجربة انخلاع الذات على مختزنات تراكمها الحيزي تحمل ظل الانقياد للبوحية بلغة خضراء طرية . وقد تجـاوز الشاعر فيها نتاجه السابق « كتابة على حاشية الجرح » بالكثير من التفاصيل والرؤى .

ومن هنا تكتسب هذه المجموعة الجديدة أبعادهـا الوثوقية فينا .. فقيمة الفن على الدوام ترتبط الـى حد كبير بمقدرته عـلى التجاوز والتخطي والكشف الابرازي الموصل الى اكتناه الأبعاد الخفية للعالم .

« طيور بعد الطوفان » .. أسئلة كثيرة يطرحها القلب في زمن الاجوبة العفنة .

بيروت